السيد عبد الرحمن الكواكبي

الرجال ثلاثة شريرٌ ضرُّهُ اكثر من نفعهِ فهو عضو فاسد في جسم العمران لا يؤسف على انفصالهِ منهُ . وخامل لا يرجى خيرهُ ولا يخشى ضيرهُ يحيا لنفسهِ حياة حيوانية او نباتية يصحُّ ان يقال فيهِ ان عاش او مات على حدٍّ سوى . وفاضل نفعهُ اكثر من ضرهِ او هو خير بلا شر ونفع بلا ضر وهذا الفريق ليس قليلاً ولكنهُ متفاوت الدرجات . والذين بلغوا من الفضل والكمال مبلغاً كبيراً حتى صاروا نفعاً محضاً لابناء نوعهم قليل عددهم لكنهم ملح الارض ويظهر لنا اننا فقدنا واحداً منهم في خلال هذا الشهر رجلاً سماهُ الفضل في وجههِ ودلائل سمة العلم ونبالة الغاية في حديثهِ لم تُتح لنا معاشرتهُ الاَّ برهة وجيزة لكن الفضل لا يخفى والقرائح لا تستتر وقد شقَّ علينا فقدهُ لاننا نعدُّ خسارة البلاد الشرقية بهِ عظيمة وطلبنا من احد مريديهِ ان يتحف المقتطف ببعض ما يعلمهُ من امرهِ عسى ان تنبه قراءتهُ بعض النفوس الزكية لتناول العمل

الذي تركهُ وتنسج على منوالهِ فكتب الينا الفصل التالي وكأنهُ نطق بلساننا في وصفهِ وزاد اموراً لا نعرفها من تاريخهِ قال

" قال احد اساطين العلماء المعاصرين وقد جرى في حضرتهِ ذكر النهضة الاسلامية الحاضرة : ارى في هذه الشجرة الجرداء بعض اوراق خضر وما ادري هل هي بقايا القوة القديمة او هي دلالة على حياة جديدة

هذا ما قالهُ العالم المشار اليهِ وسواء صحَّ حكمهُ على هذه الاوراق او لم يصحَّ ففقيد هذا الشهر السيد عبد الرحمن الكواكبي هو ولا شك احد تلك الاوراق بل تلك الاغصان الخضراء التي كان يرجى منها ان تمتد وتلتف لولا ان ضُرِّحت قبل اوانها

صاحب الترجمة كان كبيراً في عقلهِ كبيراً في همتهِ كبيراً في علمهِ ولد في حلب سنة ١٢٦٥ هـ من اسرة عريقة في العلم مشهورة بالسيادة من سلالة السيد ابرهيم الصفوي الذي هاجر من اردبيل قبل اربعمائة سنة وكان من اهل الامارة وزعماء الناس . ولما كان في السادسة من عمرهِ اخذتهُ عمتهُ من والدهِ الى بلدها انطاكية وكفلتهُ نحو ثماني سنين فاحسنت كفالتهُ وكانت من النابغات في الدهاء وحسن التربية والعقل فاخذ عنها النقيد ما ظهرت عليهِ امارآتهُ بعدُ بابهى المظاهر ولما رجع الى حلب يافعاً سلمهُ والدهُ الى اساتذة عصرهِ فدرس علوم الادب والشريعة وبرَّز فيها على اقرانهِ واجازوهُ بما لفتهُ عنهم الاَّ انهُ لم يكتفِ بتلك العلوم وسمت بهِ الهمة الى مطالعة ما يتعلق بعلم الاجتماع من تاريخ وفلسفة ثم درس العلم الطبيعي والرياضي على اساتذة خاصة تنال من كل ذلك حظاً وافراً

ولم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمرهِ حتى اصبح فريد مصرهِ وما زال الزمن يحنكهُ وعشرة الرجال تنفعهُ حتى حرر جريدة " الفرات " واصدر في اثناء ذلك جريدة "الشهباء" أُقفلت بعد حين ثم وصدت اليهِ وظائف عديدة في خدمة الحكومة فقام باعبائها كلها قيام الرجل البصير الذي لا يرغب الاَّ في ادخال الاصلاح حيث حلَّ . ولهُ في ذلك آثار يعرفها ابناء وطنهِ كاصلاحاتهِ في المحكمة الشرعية والمجلس البلدي وغرفة التجارة والزراعة والصناعة وادارة حصر الدخان وغيرها من الوظائف الكثيرة الكبيرة

بيد انهُ كان من طبع النقيد ان يقول الحق ولو على نفسهِ ومن كان هذا حالهُ يقاسي الامرين ولا يهدأ لهُ بال فكان ينصح بعضهم بالرجوع عن الجور والعسف فخنقوا عليهِ من جراء ذلك وتواطأ بعض العمال مع الاعيان عليهِ وساموهُ من ضروب التنكيل الوانا فصبر على ما اصابهُ مما يصيب في العادة المنوَّرين العقلاء في البلاد الشرقية

حتى اذا ضاق صدرهُ من النكبات خرج من بلدهِ فجاء مصر ثم ساح سياحتين عظيمتين الى بلاد العرب وشرق افريقية وبعض بلاد الهند اتى منهما بفوائد جليلة ليتهُ توفق الى تدوينها وقد نشر في مصر كتابين مبتكرين وهما "ام القرى" "وطبائع الاستبداد" وكلاهما يدلان على فضل الرجل وعقلهِ شخَّص فيهما امراض الشرق تشخيص حكيم بصير بمزاج المريض واعراض اسقامهِ ووصف لهُ ما ارتآهُ من الادوية الناجعة فاجاد وافاد

امَّا صفات الفقيد فكانت من احسن ما ينبغي ان يكون عليهِ رجال النهضات فما عُرف بمنكر ولا توانى في امر بدأ فيهِ ولا تضجر ولا تململ . وكان رحب الصدر خلاَّبًا للالباب اذا ضمَّك واياهُ نادٍ لا تريد فراقهُ من بعد . فكان يخاطب الناس على قدر عقولهم فهو سياسي محنك مع الساسة وعمراني اجتماعي مع علماء العمران وعالم ديني مع علماء الدين وتاجر مع التجار وزارع مع الزراع وصانع مع الصنَّاع وعامل مع العمال وكبير مع الكبراء بحيث كان الناظر اليهِ لاول وهلة يقرأ في جبهتهِ امارات العقل والخبرة الطويلة والعلم الوافر

وقد صادفنا الحظ فاجتمعنا بهِ مرارًا رأيناهُ فيها من العظماء الذين لا يتيسر لبلادنا ان ينبغ امثالهم فيها كل حين وشهدنا منهُ رجلاً واسع المادة بعيد غور العقل يتكلم عن روية ولا ينطق عن هوى عليهِ سيماء الكآبة تمَّا مُني بهِ . واكد لنا احد المتعلقين بهِ انهُ كان لا يجاريهِ تجار في الوقوف على احوال الشرق واماراتهِ وحكامهِ قديمها وحديثها وكان اعرف العارفين بتاريخ العثمانيين وتراجم رجالهم المعاصرين والغابرين

ولما كان في حلب حاول امورًا كثيرة لم يجب طلبهُ فيها منها طلب امتياز بانشاء مرفإ في السويدية ميناء انطاكية وخط حديدي من السويدية الى حلب وجر مياه نهر الساجور قرب مدينة عينتاب الى حلب فتعمر بذلك اراضٍ كانت قاحلة جرداء وجر عين البليعة من ارمناز الى ادلب ليحيي القضاءان وكان احدهما غامرًا بالمياه والآخر لا مياه فيهِ وانارة حلب وبيره جك وعرعش وادرنه بالكهربائية بواسطة قوة انحدار الماء في نهر العاصي قرب دركوش في محل اسمهُ المضيق في جسر السقور . ونال امتياز معدن ارغني من اعمال ولاية حلب استخرج فلزهُ ثلاث سنوات ونحو ذلك من الآثار التي تدل على كبر همتهِ وعلو نفسهِ

وبالجملة فالفقيد يعدّ من كبار رجال النهضة الحديثة في هذه الديار الاَّ ان المحيط لم يساعدهُ والاجل لم يمهلهُ حتى يتم مقاصدهُ السياسية والدينية على ان النغمة التي ضرب عليها قد اسمعت بعض الناس ولو لم يهبط مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد ولم يعرف عقلهُ ولا فضلهُ رحمهُ الله رحمة واسعة وعزى فيهِ الفضيلة والعمل "